مجلة الإحياء، المجلد 24، العدد: 35، سبتمبر 2024، ص - ص: 149 - 158
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

دور الأوقاف العثمانية في الدعوة (جماعة النور أنموذجا)

The role of the Ottoman endowments in advocacy (Al-Nour group as a model)

أ.د/ علي خضرة
Ali KHEDOURAH
كلية العلوم الاسلامية - جامعة الوادي
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الاسلامية
ali.khedourah@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/04/18 **تاريخ القبول: 2024/09/13**

الملخص:
الانتشار الواسع لظاهرة الوقف ودورها الاقتصادي في الحفاظ على الثروة وإنمائها ودورها الاجتماعي في تلبية حاجات جماعات عديدة من المجتمع التركي، كما هو الحال عند جماعة النور التي أرسى دعائمها فضيلة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي (رحمة الله عليه)، والتي انتشرت في بقاع العالم، وقد كان للوقف الأثر البالغ في عائدات أملاك موقفيه من المحسنين وأهل الخير من أتباع الجماعة وغيرهم من ذوي البر والإحسان من المسلمين الأتراك أثر كبير في تواصل أفكار هذه الجماعة وتكثير سوادها الذي تجاوز مسلمي الأتراك، وامتد أثر الجماعة إلى البلاد الأوروبية وبلدان شرق آسيا.
الكلمات المفتاحية: الوقف؛ العلمي؛ الأتراك؛ جماعة النور.

Summary:
The wide spread of the endowment phenomenon and its economic role in preserving and developing wealth, and its social role in meeting the needs of many groups of Turkish society, as is the case with the Al-Nour Jama'at whose foundations were laid by the eminent Imam Badi' al-Zaman Saeed Nursi (may God have mercy on him), and which spread throughout the world, The endowment had a great impact on the revenues of the properties of its stand-alone benefactors and good people among the followers of the group and other people of righteousness and benevolence among the Turkish Muslims.
Keywords: Al-Alamy endowment; Turks; Al-Nour group.

مقدمة:

إن من أهم الأنظمة الاجتماعية التي شرعها الاسلام وحث عليها، بل واختص بها لتحقيق مصالح العباد في الدين والدنيا عاجلا أو آجلا نظام الوقف الاسلامي، الذي كان له دور بارز في

المجالات المتعددة في باب الخير والإحسان وتوفير الخدمات والمنافع المختلفة للأفراد والأسر والمجتمعات قديما وحديثا.

كما أن تاريخ الأوقاف الاسلامية يشهد وبكل جدارة واستحقاق أن الوقف الإسلامي قد أسهم وبشكل جلي في تحقيق العديد من المنافع الاجتماعية والاقتصادية بل وحتى السياسية، التي درت بالكثير من المنافع والعوائد المادية والمعنوية تمثلت بعضا من جوانب هذه العائدات في نشر دور الأيتام ومساكن الطلاب وتشييد المساجد والمدارس وطبع الكتب والمتون ومؤلفات الشيوخ ودواوين الشعراء والمجلدات العلمية ووقفها على كراسي الشيوخ وحلقات العلم ومدارسه ومرافقها العامة... وغيرها.

هذا الدور الإيجابي للوقف الاسلامي تجاوز منافع البشر المباشرة ليصل إلى وقف المزروعات وبعضا من الحيوانات التي ينتفع بها ومن جملة هذا الاهتمام الأخير تلك الأحباس التي أوقفها ذوي البر والإحسان كمنازل الأيتام ودور ذوي السبيل والآبار المائية والعيون الجارية وغيرها.

"ولعل التاريخ خير شاهد بما كان للوقف من أثر في بناء أسس الحضارة الاسلامية، وإشعاعها على مر العصور .حيث كادت مهمة الدولة الاسلامية في العصور الماضية تقتصر على حفظ المن الداخلي والخارجي ،وبقيت المجالات الأخرى تعتمد اعتمادا كبيرا على الأوقاف، فالمؤسسات التعليمية ودور العلم عامة ،وتخطيط الطرق وتعبيدها وبناء القناطر والمستشفيات ونحوها من المنشآت، كلها كانت من موارد الأحباس وثمارها .بل إن الدولة عند الضرورة تلتجئ إلى أموال الوقف لتستعين بهافي القيام بما تعجز عنه ميزانيتها العامة"[1].

ولا غرابة أن نجد كثيرا من العلماء والفقهاء والباحثين عموما قديما وحديثا، قد أولوا عناية كبيرة عبر التاريخ بالتشجيع على التنافس في أبواب الخير عامة وبتوسيع رقعة الأوقاف الخاصة والعامة على حد سواء.

كما نجد أن هذا الاهتمام بالوقف قد تنوعت مجالاته كما أسلفنا الذكر، وهذا ليكون مواكبا لمستجدات الحياة ومتطلباتها، بل ونوازلها وخاصة في جانبيها الاجتماعي والنفسي، وكذا التعبدي.

هذا وقد اندرج الوقف الاسلامي في أحكام الشريعة في إطار الأحكام الشرعية المبنية أساسا على الاجتهاد، ولذلك أعمل المشرعون الفقهاء عقولهم في تنظير أحكامه من الكتاب والسنة استنباطا أو قياسا أو استحسانا أو عن طريق المصالح المرسلة أو بتحكيم العرف وما جرى عليه العمل ونحو هذا مما هو معلوم من مصادر التشريع المعتمدة في المذاهب الفقهية.

هذه التجربة النادرة في عالم الدعوة اليوم ما أحوج أهل العلم والبحث في الاقتفاء بها والاستفادة منها في تنمية الأوقاف العلمية واستثمارها في نشر العلم والمعرفة.

من هنا جاءت إشكالية الورقة العلمية، ما الوقف العثماني العلمي؟ وما هي أهميته في العلم والدعوة إليه؟ ما الظاهر في تجربة طلبة جماعة النور، التي تنشر أفكار الامام بديع الزمان سعيد النورسي (عليه رحمة الله)؟

دواعي الاهتمام بموضوع الوقف عند المسلمين

نظرا لأهمية الوقف في حركية المجتمع وما يجلبه من المنافع للأفراد والأمة على حد سواء فلا غرابة أن تكون هناك العديد من الأسباب والدوافع التي تدعو إلى الاستثمار فيه وتنميته والمحافظة عليه والعناية بشروطه وصيرورة عوائده، والمحافظة عليها، ولعل من أهم الأسباب التي ترسي ديمومة هذا الـهـام من جوانب الخيرية في الأمة الاسلامية، ما يلي[2]:

أولا: اعتبار الوقف صدقة جارية، ومن أفضل القربات التي يحصل بها الاطمئنان للواقف في حياته، لما يراه من ثمار ما كسبت يداه من الخير، وبعد مماته يسعد باستمرار الأجر والثواب له.

ثانيا: اعتبار الوقف وسيلة للتكفير عن الخطايا، فيلتجئ إلى التحبيس من يرتكب إثما أو خطيئة متوسلا به إلى مولاه ليغفر له ويتجاوز عن سيئاته.

ثالثا: تنافس الواقفين في البذل والعطاء منذ الصحابة (رضي الله عنهم أجمعين) ومن جاء بعدهم عبر العصور المتلاحقة، وفي كل أنحاء البلاد الاسلامية، وخصوصا في بلد الأتراك، مهد الخلافة الأخير، ولا سيما في المجال العلمي، سواء تعلق بدعم طلابه أو بتشييد حواضره ومتطلبات مدرسيه.

رابعا: كون الوقف والأحباس من العبادات المعقولة المعنى والمتعددة الجوانب والأشكال.

خامسا: الحاجة المتزايدة في أحكام الوقف إلى الاجتهاد في ما يتعلق بأحكام التصرف في أموره وخصوصا مستجداته ونوازله وما يطرأ من الوقائع المعاصرة التي ترتبط به مباشرة أو تسهم في تحقيق مقاصده.

سادسا: الارتباط الوثيق لثمار الأحباس بالمقاصد الشرعية والمحافظة عليها على اختلاف أنواعها ومراتبها، الأمر الذي يؤدي إلى استحضارها في حركة التحبيس مما يستفاد منها في توظيف الأموال الموقوفة في جميع المجالات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والصحية والعمرانية... وغيرها.

سابعا: الحاجة إلى بيان دور الفقهاء في توجيهاتهم وفتاواهم إلى أن الوقف الاسلامي يهدف إلى تحقيق المقاصد الشرعية بمختلف مراتبها التي تستوعب حاجات الأفراد والأمة من الضروري إلى الكمالي ثم إلى التحسيني.

هذه الدواعي وغيرها مما تجعل من موضوع الوقف منذ أن عرف في تاريخ الاسلام من عهد الصحابة (رضي الله عنهم) إلى يوم الناس مجالا رحبا للتنافس الخيري الذي بذل فيه المسلمون قديما وحديثا كل غال ونفيس لأجل نصرة الدين وحفظ الكليات الشرعية التي جاءت الشريعة الاسلامية لإرسائها وتثبيتها.

والوقف الاسلامي في المجتمع التركي كغيره من المجتمعات الاسلامية قد لعب أدوارا مهمة وعديدة في مساحات العمل التطوعي والخيري، كما عبر بصدق عن عمق الدور الاجتماعي والتعليمي وكذا الديني إذ أسهم في كثيرا من الأزمنة في ربوع شتى من مناطق وأصول الديار العثمانية، وهذا بتوفير المأكل والملبس والمأوى، وكذا توجيه الحركة العلمية وتشييد العديد من

المدارس ومراكز التعليم الوقفية وبناء الجامعات والاهتمام بالأساتذة والمعلمين وبناء مراكز العبادة وإصلاح وترميم المساجد... الخ.

الانتشار الواسع لظاهرة الوقف ودورها الاقتصادي في الحفاظ على الثروة وإنمائها، ودورها الاجتماعي في تلبية حاجات جماعات عديدة من المجتمع التركي، وأخص بالذكر جماعة النور التي أرسى دعائمها فضيلة الإمام بديع الزمان سعيد النورسي (رحمة الله عليه) التي انتشرت في بقاع العالم وكان للدور المالي العائد من أملاك موقفيه من المحسنين وأهل الخير من أتباع الجماعة وغيرهم من ذوي البر والإحسان من المسلمين الأتراك أثر كبير في تواصل أفكار هذه الجماعة وتكثير سوادها الذي تجاوز المسلمين الأتراك.

لقد امتد أثر هذه الجماعة إلى البلاد الأوروبية وبلدان شرق آسيا، مما جعلنا نسلط الضوء على واقع الوقف العلمي التركي وبالأخص التجربة النورية لطلبة الإمام النورسي (عليه رحمة الله)، والتي تعد وبحق تجربة فريدة في هذا العصر تنافس معظم الأنظمة الوقفية في البلاد العربية والإسلامية على حد سواء، ولذلك ارتأينا أن نتعرف على هذه الظاهرة ولو بإيجاز.

إدارة الــوقف الاسلامي تاريخيا

ارتكز التكوين الفقهي المعرفي لمفهوم الوقف على معنى الصدقة الجارية، إذ هي النواة المعرفية الأولى لنظام الوقف كله، وربما كانت صفة "جريان الصدقة" هي التي دفعت العلماء لحملها على معنى الوقف، حيث أن غير الوقف من الصدقات ليس صدقة جارية[3].

وهذا بالنظر إلى حدود منفعة الصدقات لمن انتفع بها، أما الوقف فستجري عوائده لآماد عدة.

والناظر التاريخي للمعرفة الفقهية للوقف يجد أنها قد قطعت عدة مراحل أساسية لمفهوم تطوره في المجتمع الاسلامي ، يمكن إيجازها على النحو التالي[4]:

المرحلة الأولى: حيث بدأت بعد وفاة الحبيب ﷺ واستمرت إلى نهاية القرن الثالث الهجري وبدايات الرابع، ويمكن وصفها بمرحلة الاجتهاد والتأسيس المذهبي لفقه الوقف، حيث تبلورت خلالها المعالم الرئيسية لهذا الفقه ضمن عملية البناء الفقهي للمذاهب الكبرى (السنية والشيعية) على مدى القرنين الهجريين الثاني والثالث.

ونلاحظ أن عملية التأسيس المذهبي للفقه عموما والوقف بالأخص قد تزامنت مع حركة المد في الفتوحات الاسلامية وبالطبع قد انضوت جميع البلدان العربية تحت لواء الخلافة، وقد لقي نظام الوقف القبول من جميع المسلمين ،ولو كانوا غير العرب ومن هؤلاء الأتراك.

المرحلة الثانية: وهي التي تمتد من القرن الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري، وقد شهدت نموا مطردا في المفهوم الفقهي للوقف، ويمكن تسميتها بمرحلة التفريع والتفصيل مع شيء من الاجتهاد في الأحكام والقواعد المتعلقة بهذا النظام.

المرحلة الثالثة: وهي التي تشمل القرن الرابع عشر الهجري وبدايات الخامس عشر الحالي، وفي هذه المرحلة حدث تحول نوعي في السيرورة التاريخية لفقه الوقف، فقد عرفت بعض التقنيات الخاصة بأحكامه الشرعية ونظمه الإدارية في معظم بلدان العالم الاسلامي، حتى وإن اختلفت مسمياتها من بلد لآخر.

الوقف العثماني وتطوره:

في حقيقة الأمر لقد عرف الوقف العثماني التحول من الفقه - فحسب - إلى القانون منذ بداية مرحلة الإصلاحات العثمانية أو ما عرف بـ "التنظيمات " في عهد السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز في الفترة الممتدة من سنة 1839-1880 م.

والتنظيمات، هي: تلك الحركة السياسية الإصلاحية الرسمية التي أحدثها سلاطين الدولة العثمانية وقد قامت بغية تنظيم الدولة على غرار نظم الدول الغربية ، وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي الذي عاش بعيدا عنه؛ وذلك تحت ضغوط الهزائم العسكرية التيُمني بها الجيش العثماني، وقد ساعد ذلك على ترويج الرأي القائل بأن "أخذ الدولة بأشكال الحكم الأوروبية" سيتلوه حتما وتلقائيا قيام دولة قوية حديثة كما زعم بذلك فارضوه والساعين له من السلاطين وخدمهم، والمؤسف أن تلك التنظيمات قد كانت على حساب كثير من العوائد والتقاليد والأعراف التي توارثها العثمانيين جيلا عن جيل ومنها نظام الوقف العرفي - المراد تقنينه وتنظيمه كما زعموا - والذي بذلت فيه أرواح وجهود وأوقات بغية ذلك التواصل الاجتماعي والخيري، الذي حافظ على روح محبة الخير وبذله ولاسيما في جانبه العلمي، الذي لا نبالغ إن قلنا أنه كان الرائد في جوانب الوقف المتعددة.

مكانة الوقف العلمي عند العثمانيين:

الناظر إلى محورية الوقف في حياة الإنسان العثماني يندهش حتى لا يكاد يصدق حيث يولد عندهم المولود في عهد الخلافة العثمانية على يد قابلة نذرت نفسها وقفا لله بهذا العمل، ثم يقضي طفولته على مهد قدم وقفا لله، ويلبس لباسا قد أوقف من قبل الغير وقفا لله، ويعالج في مستشفى موقوف لله، ويعالجه طبيب نذر نفسه بهذا العمل وقفا لله، ويدرس في مدرسة بنيت وقفا لله، ويدرسه معلم يتقاضى راتبه من الأوقاف، وقد يعمل الإنسان طوال حياته في عمل تابع لأحد الأوقاف، وعندما يتوفى يصلى عليه في مسجد بني وقفا لله، ومن قبل إمام يتقاضى أجره من الأوقاف وليس من الدولة، ثم يحمل على نعش جعل وقفا لله، ثم ينقل جثمانه إلى مقبرة هي وقف لله، ولا تنتهي عند هذا الحد فوحدت عناك من وقف نفسه لله في الدنيا لإسعاد الآخرين بعد وفاتهم في الآخرة[5].

هذا المفهوم العام والشامل لمسألة الوقف ودوره في حياة العثمانيين يبدي لنا مدى العناية التي أولاها العثمانيون لتطوير التنافس الوقفي والمحافظة عليه، ولعل موضوعا مثل موضوع العلم الذي يكون الأول في عوائد الفقه دون منازع ذلك أن العلم أهم وسيلة لإطلاق سراح العقل من سجن الهوى عن طريق البحث والمعرفة والبعد الديني الذي يعلي من قيمة العلم وأهله، وبالتالي نجد أن الأتراك منذ أن عرفوا الاسلام سارعوا كذلك إلى بث روح الأخوة الاسلامية عن طريق الأوقاف ونشروا به العلم وشيدوا مؤسساته الكبرى والدائمة وأنفقوا الأموال والإعانات المادية والعمرانية على العلماء والطلبة بشكل عز نظيره.

ولقد وظف الأتراك مختلف المؤسسات من أجل نشر العلم وتوعية الناس بما ينفعهم في دينهم ودنياهم بل وحرضوا على اكتساب المعرف والمهارات اللازمة لعمارة الأرض وكسب الرزق،

ولضمان استمرار هذه المؤسسات في أداء وظيفتها التنويرية، شرعوا أصنافا من التبرعات التي تدفع القادرين عليها إلى الاسهام بما يوفر متطلبات التعليم والتعلم.

لقد اعتبر الوقف العثماني من أهم الموارد المالية التي أدت إلى انتشار المدارس والكتب ووسائل التعليم في كامل أرجاء البلاد وتعيين المدرسين فيها والعمال، وإعداد مرافق لإيواء الطلبة وتوفير النفقة اللازمة لهم.

ولقد سجل تاريخ العثمانيين الوقفي سجلات لا تطوى على مر التاريخ البشري في مؤسسات الوقف ودواوين الأوقاف الخيرية، وهذا أقدم معلم تاريخي في القدس الشريف الواقع على أسوار المدينة التاريخية التي تم بناؤها من قبل السلطان سليمان القانوني عام 1529 م خير شاهد ويليه مباشرة في حجم المشاريع الخيرية الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي بنيت في أماكن مختلفة من القدس وأبرزها الوقف الخيري "خاصكي سلطان" أو ما يعرف عندهم بـ "التكية"، وهي من أعظم المؤسسات الخيرية في القدس والتي قامت بإنشائها زوجة السلطان سليمان القانوني.

والتكية: هي وقف خيري إنساني يقدم الطعام والشراب لفقراء القدس والمحتاجين أنشأته زوجة السلطان سليمان القانوني في القدس سنة 1551م وبجانبها مجمعا كبيرا يشمل مسجدا ورباطا ومدرسة وخانا ومطبخا يخدم طلبة العلم والمتصوفين والفقراء ويقدم لهم وجبات طعام مجانية.

كما سجل التاريخ العثماني سواء في فترة السلطان أو في ما قبلها أو بعدها أنهم قد أبدعوا في نشر مرافق الوقف ومؤسساته وفي مقدمتها المدارس القرآنية بجوار الجوامع الكبرى والدور السكنية لطلبة العلم والعلماء ومن أجل اعمال الخير في نشر العلم وتشجيع أهله وطالبيه أن السلطان سليمان القانوني مثلا تنازل في فترة توليه عن حقه في رسوم دخول الحجاج لبيت المقدس لصالح تمويل قراءة القرآن في قبة الصخرة لمدة عام كامل[6].

وتاريخ الأسرة العثمانية ودورها في الحرمين الشريفين والكثير من الخدمات التي لا يسع المجال لذكرها والغالب فيها أوقاف انطلقت في خدمة الحرمين وأهل خدمتهما وزوارهما منذ الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر سنة 1516م-1517م وأذنت بانتقال رعاية وخدمة الحرمين الشريفين إلى كنف الدولة العثمانية، أيام شريف مكة الذي أرسل ولده محمدا إلى السلطان سليم الأول أثناء مقامه في القاهرة ليعلن له مبايعته ويسلمه مفتاح الكعبة المشرفة، رمزا لانتقال خدمة الحرمين الشريفين وأهلهما إلى العثمانيين.

بهذا الانتقال صار السلطان سليم الأول العثماني أول من لقب بـ "خادم الحرمين الشريفين" وهو اللقب الذي حرص السلاطين العثمانيون من بعده على استخدامه، تعبيرا عن افتخارهم بالقيام بهذه الخدمة.

وفي ذات المضمار اهتم العثمانيون بإنشاء المؤسسات الخيرية والمدارس والمكتبات في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة دعما للحياة العلمية والعملية فيهما ومن حولهما[7].

ولقد ارتبط دور طلبة العلم في تلك الحقبة في العالم الإسلامي كله بالجوامع والمساجد والمدارس، إذ أنه في كل مؤسسة تعليمية يوجد عدد متفاوت من الطلاب حسب موقعها وحجمها ونوع العلوم التي تدرس فيها، والشيوخ الذين يتولون التدريس بها.

كما يضاف إلى هذه العوامل الذاتية للمدرسة أو الجامع عامل أساسي مهم، وهو مدى توفر وسائل التحصيل وخصوصا الضروري منها كقاعات الإيواء وخزانات الكتب والأغراض الخاصة والإطعام والنفقة والحمامات وأماكن التدريس والمراجعة، ونظرا لأهمية هذا العامل باعتباره يشجع الطالب والأستاذ على الإقبال على العلم في المدرسة أو الجامع، قام الواقفون بجريان الأحباس عليها لكي تواصل مهامها على الوجه الأكمل.

كما عرفت الأوقاف العلمية آنذاك بعض الشروط والتقييدات وضعها الواقفون عليها، تتعلق هذه القيود والوصايا على حسب الأوقاف المتنوعة الأدوار التي تؤديها خدمة للطلاب وأهل العلم والهداية والعبادة كما عرفت الدولة العثمانية من حينها ومن بعد ذلك انتشارا واسعا للأوقاف العلمية في مناطق متعددة من تراب السلطنة، ولعل الأوقاف التي تعج بها المدن التركية خاصة والموجودة حتى الآن خير دليل على هذا الأمر.

والمتطلع للمؤسسات الوقفية الرسمية والشعبية من جوامع ومدارس كبرى وحتى بعض البيوت الوقفية لأهل السبيل وطلاب العلم في كل من انقرة وكونية وبورصة واستانبول وأنطاكية وبارلا وإسبارطة... وغيرها من المدن التركية التاريخية العامرة بجوامعها وصوامعها الشاهدة على دور العثمانيين قديما وأحفادهم حاليا في تنمية الأوقاف والحرص عليها والتناوب على رعايتها ونقلها للأجيال جيلا بعد جيل.

هذا باختصار عن الدور الوقفي العثماني ولاسيما في الجانب العلمي والثقافي، فضلا لو تناولنا كل الفترات المتوالية إلى أواخر أيام الدولة العثمانية التي ختمت بمرحلة مباركة كانت نهاية الدولة، تلك الحقبة التي لا يحسد عليها السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني الذي ترك بصمة في الأوقاف الخيرية التي تجاوزت حدود أرض الخلافة في زمانه ولعل وصف الشاعر لمفاخر الخليفة المظلوم، في زمانه، أصدق مبلغ، حين قال:

لسلطاننا عبد الحميد محـــــاسن ومن ذا الذي للحق والفضل يجحد
وقد حاز تعميـرا لبـاطن كعبة وتـاريخه بيت فريد يـــجـــدد
بنـاء بدا زهـــدا لداخل كعبة وسلطاننـــا عبد الحميد المجدد[8]

الأوقاف العلمية عند جماعة النور

لقد أبدعت جماعة النور التي انتشرت مدارسها الوقفية في أكثر من زهاء 80 بلدا في العالم، نتيجة لبذل طلاب النور أنفسهم وأعمارهم والغربة عن الوطن بالهجرة التي يرسلها إليها جماعة الخدمة التي نذرت نفسها خدمة لرسائل النور ونشرها في بقاع العالم كله، ولا عجب أن ذكر لك أن في استانبول وحدها قرابة الألف وقف (أي بيت لطلاب رسائل النور موقف من طرف الجماعة وله وقف يسيره مكلف أيضا).

ولقد مر بنا أن منهم من نذر نفسه وقفا لأجل سعادة الإنسان بعد وفاته، إنه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي أوقف كل عمره في خدمة الإيمان ونشر الرسائل التي تعتبر روحا نابعة من القرآن الكريم، بل هي تفسير معنوي للكونين المنظور والمسطور، أي نور يشع من فيض القرآن المتلو وآفاق الكون الرحب[9].

هذا الذي أباح يوما عن سر نفسه فقال: "قررت أن أضحي لأجل حقيقة القرآن الكريم ،لا لسعادتي الدنيوية بل لسعادتي الأخروية كذلك..."[10].

لقد تمثل مفهوم الوقف عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في شخصه وفي مؤلفاته "الكليات" حيث أوقف نفسه وحياته كلها لله واجتمعت في مؤلفاته مجموعة من الألفاظ التي تعبر عن الوقف كالتضحية والفداء والاستغناء والتفاني والنذر والإخلاص، كما نجده كان يتمنى طول حياته أن يحضى ببذرة من التضحية السامية بقوله: أرض الدخول النار لأنقذ بعض أصحابي منها بالإيمان[11].

وهكذا يعد النورسي النموذج الأمثل لهذه التضحية الصديقية، حيث قضى عمره كله وقفا لله فلم يجد فرصة للتفكير في الزواج لينجب أبناء من صلبه، ولكنه أنجب المئات بل الآلاف من أتباع الجماعة النورية، إنهم بحق أبناء الإيمان إنهم طلاب النور (الأوقاف البشرية) إذ هم طلاب أوقفوا حياتهم لله اقتداء بأستاذهم ورثوا عنه رسائل النور لتكون لهم دستورا لحياتهم.

هذه الرسائل التي أرسى الإمام النورسي أسمى أهدافها مطلقا وهي خدمة الأسرة البشرية دون مقابل، بينما النتائج لهذه الوظيفة السامية تعود لله رب العالمين، وما على طلبة النور الصادقين من منظور الرسائل ،إلا أن يتفانوا في خدمة الوظيفة الإيمانية التي نذروا لله أعمارهم لها.

ولعل غير المتطلع على هذه المدارس، من حقه أن يسأل عن حقيقة هذه المدارس، ودورها، فنقول المدارس النورية الوقفية هي تلك المساكن والمباني، سواء كانت مكتراة أو خاصة أو هي ملك الجماعة من عائدات الأوقاف، والتي تضم مجموعة من الطلبة يشرف عليهم طالب "وقف" يقوم بتوجيه الطلاب والرواد الجدد وتسيير شؤون المدرسة ولوازمها.

كما تقام بالمدرسة حلقات النور حيث تزدحم الصالة بالمستمعين يتحلقون بشغف حول أستاذ يقرأ مقاطع من رسائل النور، ويشرح معانيها لمرتادين أعمارهم مختلفة صبيانا وشبابا وكهولا وشيوخا، تتجه أبصارهم صوب القارئ، فيمطرهم بكلمات تملأ قلوبهم إيمانا واطمئنانا ومحبة ويقينا، وتضعهم في قلب العالم منطلقة بهم صوب الفضاء الكوني والملكوت.

إن العديد من الأوقاف النورية هي عبارة عن أوقاف تبرع بها المحسنون كصدقة جارية تتمثل في المنازل والسيارات وأثاث المنازل ومؤونات الأكل وأثاث الحاجة ولوازم الطبخ والغسل ومخازن الطلاب وغيرها.

والسبب في وجود هذه الأوقاف العديدة هو الارتباط بالدين والإيمان والروح التطوعية التي ورثوها عن أجدادهم العثمانيين[12].

الخاتمة:

لقد تناولت هذه الورقة الوقوف على بعض جوانب الوقف التركي وواقعه المعاصر، وذلك من خلال تتبعنا لهذه الجانب المهم من جوانب الخير، التي زرعت في قلوب المسلمين منذ نزول الآيات الأولى الدالة على التنافس الخيرى في جوانب الاحسان المتنوعة، وخصوصا تلك التي يتعدى نفعها، ويتوارث أبناء المسلمين عوائدها والحفاظ عليها، وديمومة الانتفاع من ثمارها، كما أن أجرها وثوابها مستمر ما دام عطاؤها.

هذه التجربة النورسية التي قلما يكون مثلها أو ما يضاهيها في بلاد الاسلام اليوم، والتي ربما تشترك في جانبها الاجتماعي مع نظام "العزابة" المعروف في بلادنا عند إخواننا الاباضية في الجزائر وخارجها[13].

لكنه، ولعل ما يميز نظام الوقف النوري التركي ذي الأصل العثماني عن نظام العزابة وغيره هو تلك الشمول الذي عمه نظام الوقف عند الأتراك، إذ تكون المدرسة الوقفية هي مكان تخريج الطلاب وتكوينهم والنفقة عليهم وتعليمهم، كما أن المدرسة هي محل الدعوة المفتوح لكل فئات المجتمع إلى الاستزادة من أنوار رسائل النور، والتزود من معينها.

أوقاف الأتراك العلمية لم تكن محصورة في جماعة النور وصرفهم عن نشر الرسائل والترويج لها، بل تعدت إلى جماعات أخرى كثيرة في تركيا التي تجبرت فيها العلمانية ردحا من الزمن، وهي اليوم تتعافى من آثار العلمانية الحمراء، لما رأيناه من مساجد تعلى من خلال أصوات الآذان للصلوات، ويقرأ فيها القرآن وينشر فيها أحكام الدين، ويتدين أبناؤها بناتها ويعودون إلى أصول أجدادهم الفاتحين.

التوصيات:

- إن طبيعة موضوع الوقف وعوائده وخاصة في المجال العلمي بنشر الوعي، وتوارث المعلومة مكتوبة ومسموعة ومقروءة، هي مقاصد شرعية متعددة النفع ومسبلة لثمارها ومحصلة لأجور لا يعلمها إلا الباري سبحانه.
- إن الاهتمام بموضوع الوقف مطلقا وخصوصا العلمي منه - في ظل الظروف القانونية والاجتماعية المتواضعة- لمسألة جديرة بالطرح والمناقشة والتحليل.
- ما أحوج زوايا العلم ومدارس القرآن ومعاهد التكوين والجامعات والمساجد ومكتباتها العلمية إلى تلك العزيمة الروحية والأيادي السخية لإتمام مرافقها ولوازمها الضرورية حتى تؤدي رسالتها في أحسن الظروف، وتستقطب أكثر الأعداد من الراغبين والباحثين والمتعطشين للمعرفة.
- أكرم بذلك من صنيع إن دلت على معرفة شرعية يتعبد بها الطالب والباحث العلمي.

الهوامش:

[1]- الحسن تركوي، المقاصد الشرعية للوقف الاسلامي، مجلة "روافد" الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالكويت، العدد:81، فبراير 2014م، ص 15.

[2]- المرجع نفسه، ص 16 بتصرف.

[3]- محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 9-10.

[4]- مصطفى ربـاحي، الأوقاف الإباضية، دراسة حالة الأوقاف الإباضية بوادي ميزاب "بني يزقن"، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع الثقافي التربوي، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، تخصص ثقافي تربوي، تحت إشراف أ.د/ جمال معتوق، نوقشت بتاريخ: 2014/06/26م.

[5]- Arsebuk Esat, Medeni Huku C.1 BaslangicVe Sahisin Hukuku, Ankara, 1938, Sh 279.

[6]- I.Y,T AS، مجلة حراء، مجلة علمية فصلية تصدر عن استانبول، تركيا، العدد: 15، السنة 4، ص27.

[7]- محمد الأمين المكي، خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج، ترجمة عن اللغة التركية الدكتورة ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 2، 1426هـ-2005م، ص 8.

[8]- المرجع نفسه، ص 15.

[9]- علي كرامانلي، نضرة جديدة إلى الوقف والتربية، مجلة الأوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد 22، ص 198.

[10]- سعيد النورسي، سيرة ذاتية، دار سوزلر، القاهرة، ط1، ص 492.

[11]- سعيد النورسي، الملاحق، دار سوزلر، القاهرة، ط1، ص 387.

[12]- مصطفى رباحي، مرجع سابق، ص 187.

[13]- يراجع في هذه النقطة بالذات أطروحة الدكتوراه، التي أعدها الباحث مصطفى رباحي، من ولاية غرداية والموسومة بـ "الأوقاف الإباضية، دراسة حالة الأوقاف الإباضية بوادي ميزاب "بني يزقن"، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع الثقافي التربوي، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، تخصص ثقافي تربوي، تحت إشراف أ.د/ جمال معتوق، نوقشت بتاريخ: 2014/06/26م.